آداب الحرب في الإسلام

بقلم

فضيلة الأستاذ الجليل السيد

محمد الخضر حسين

رئيس جمعية الهداية الاسلامية

والمدرس بكلية أصول الدين

وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الناشر

جمعية الهداية الإسلامية

آداب الحرب في الإسلام

بقلم

فضيلة الأستاذ الجليل السيد

محمد الخضر حسين

رئيس جمعية الهداية الاسلامية

والمدرس بكلية أصول الدين

وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الناشر

جمعية الهداية الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على أن أحييت فى نفوسنا آمالا طالما باتت هامدة، ووفقتنا للنهوض من كبوة خمول وذهول، فاذا القلوب باصرة، والغيرة على الحقوق متقدة، والأقلام مجاهدة. ونصلى ونسلم على رسولك الذى أنزلت عليه كتابا بهرت العقول آياته وسوره، وأيدته بنصرك المؤزّر، ولينصرن الله من ينصره.

أما بعد: فقد ذكرت ما كان للجيوش الاسلامية من قوة، وما كان لها من الوقائع المكللة بالظفر، ولم أرتب فى أن لتلك القوة والظفر أسبابا أقواها نور الايمان الذى كان يتلألأ فى صدورهم، وآداب الدين الذى كانوا يعتزون به فى كل موطن، ونصائحه التى كانوا يرعونها بحق، فبدا لى أن أذكّر جيوشنا الاسلامية بجانب من تلك الآداب والنصائح، حتى اذا وجدت فطرا سليمة ونفوسا مشرقة بالايمان، قوى رجاؤنا فى أنا سنخرج من حمأة المهانة، الى صعيد طاهر من الكرامة، وأن الزمن الذى تخفق فيه رايتنا بالنصر على من يروم السيطرة على أوطاننا غير بعيد.

أسباب الحروب:

طبعت نفوس على حب الاستئثار بالمنافع، وذلك ما يدعوها

إلى أن تمُــدّ أيديها إلى مايتمتع به غيرها من خير ، وتنتزعه منه بقوة ؛ كما أن فى النفوس غيرة على ما بيـدها من حق ، وإباية لأن يؤخذ منها هذا الحق وهى كارهة ، وذلك ما يدعوها إلى أن تذود عن ساحتها ، وتدافعَ عن حقوقها ولو كان خصمها أكثر جنداً وأتمّ سلاحا ، بل تقف هذا الموقف من الرجولة والاحتفاظ بالـكرامة ، ولو غلَب على ظنها أنها متغلَب على أمرها ؛ تفعل هذا إيثاراً لحياة العزة على حياة المهانة ، وتحاميا لخزى ينقل من جيل الى جيل .

وهاتان الطبيعتان : طبيعة حب الاستئثار بالمنافع ، وطبيعة إباء الضيم ، هما منشأ أكثر الحروب التى تقوم بين الأمم : الحريص على منافع فى يد غيره يهاجم أو يستعد متحفزا للهجوم ، ومن بيـــده المنافع ينهض فى وجه المهاجم ، أو يبادر المتحفز للهجوم عليـه قبل أن يستوفى وسائل الهجوم ، « تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك »

وربما كان قوم على حق وسيرة من الرشـد ، فيحمل لهم الطغاة الفجّار ضغنا ، ويرومون القبض على زمامهم ليصرفوهم عن سـيرتهم الرشيدة ، ولا يرضى المستقيمون على طريقة الرشـد إلا أن يعيشوا أحرارا ، فاذا الحرب ناشبة : أولئك يبغون فتنة ، وهؤلاء يبغون سلاماً .

وقد تنشب الحرب بين طائفتـين يعتقد كل منهما فى نفسه أنه

المظلوم وخصمه الظالم ، وهذا النوع من الحروب هو الذى يمكن تحاميه من طريق المفاوضات ، وقرع الحجة بالحجة ، ويغنى فيه القلم عن النار والحديد .

الاستعداد للحرب:

إذا كانت طبيعة حب الاستئثار بالمنافع غالبة على النفوس ، وإذا كان أصحاب الأهواء يحرصون على إطفاء نور الحق ، وإذا كان فى إقناع أحد الخصمين بأن الحق فى جانب غيره صعوبة ، فمن الحزم أن تكون الأمة على استعداد كاف لدفاع من يريد الاعتداء على حق من حقوقها ، بسوء قصد أو بسوء فهم .

وكذلك نرى الاسلام قد فرض على الأمة أن تنفق أقصى ما تستطيع فى الاستعداد للدفاع ، قال تعالى: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ؛ فاستعداد الأمة للحرب يجعلها فى منعة من أن يهتضم ذو قوة حقاً من حقوقها ، أو تحدثه نفسه بأن يبسط سلطانه على قيد شبر من أوطانها .

أمر الشارع الحكيم باعداد وسائل الدفاع ، وذكرها بلفظ عام وهو قوله: « من قوة » لتتناول كل ما يحتاج اليه فى الدفاع ، ويكون له أثر فى الفوز على العدو المحارب ، فيدخل فيه آلات الطعن والضرب وآلات الرماية ، وبناء الحصون ، وتهيئة ما تحتاج اليه الجنود من نحو الملابس

والمطاعم . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا إن القوة هى الرمى » تنبيه على أن الرمى أهم الوســائل التى تكون بها القوة . فالطيارات والبارجات والدبابات والغواصات من أدوات الرمى .

التدريب على الحرب :

لما كان فى السباق على الخيل تدريب على خوض غمار الحروب ، أذن فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفعله ، على الطريقة المعروفة فى كتب الفقه ؛ وأذن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك فى اللعب بالسلاح ، لما فيه من التمرين على الطعان بجد إذا التقى الجمعان ، ورد فى الصحيح أن الحبشة كانو يلعبون بالحراب فى المسجد على مرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما أنكر عليهم عمر بن الخطاب ، وأهوى الى الحصباء ليرميهم بها ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « دعهم ياعمر » .

محاكاة العدو فى وسائل الدفاع :

كان علينا استطلاع مايهيؤه العدو من وسائل الحروب لنصنع ما يصنع ، حتى نماثله فى القوة ، ونفضله بأننا ندافع عن الحق ، ونرجو من الله ما لا يرجو . وفى وصية أبى بكر الصديق لخالد بن الوليد : « إذا لاقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به : السهم للسهم ، والرمح للرمح ، والسيف للسيف » . ولو ظهر فى أيام أبى بكر نوع

آخر من السلاح لذكره . ونقول على طراز حكمته : الطيارة للطيارة ، والحراقة للحراقة ، والغواصة للغواصة . وأشار سلمان الفارسي في واقعة الأحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، فأذن بحفره وعمل فيه بنفسه، وقال أبو سفيان يومئذ: « هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ».

كتابة أسماء من يدعون الى الحرب :

من النظم الجارية في القديم والحديث، كتابة أسماء من فيهم كفاية للجندية ؛ حتى يعرف أولو الأمر قوة الجند من جهة عددهم ، وكان هذا أمرا متبعاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، روى ابن عباس أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إني كتبت في غزة كذا ،وامرأتي حاجة ، فقال : « ارجع فحج مع امرأتك » ، وفي الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اكتبوا الى من تلفظ بالاسلام من الناس » فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل .

وكان هذا عند خروجه الى غزوة أحد ،أو عند ما كانوا بالحديبية

إعلان الحرب:

يوجب الاسلام علينا الوفاء لمن بيننا وبينهم عهد أو هدنة . فان قامت شواهد على أنهم يريدون خيانتنا ، ويتهيئون للهجوم على أوطاننا ،

لم يجز لنا مهاجمتهم وأخذهم على غرة ؛ ولا بد من أن نشعرهم بأن العهد بيننا وبينهم قد انتقض ، قال تعالى فى كتابه المجيد (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين) . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول لقائد الجيش : «وقدم النذر بين يديك» .

رفع الرايات فى الحرب :

ترفع الرايات حيث يكون قائد الجيش ، ليعلم بها مكانه ، حتى يأوى اليها الناس عند الحاجة ؛ واتخذ النبى صلى الله عليه وسلم رايته مرة بيضاء ، ومرة سوداء ، ومرة صفراء ؛ ويروى أن بعض ألويته كان مكتوبا عليه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وقد يعطى كل قبيلة لواء يقاتلون تحته ، وعقد لوفد سليم لواء أحمر ، وعقد لسعد بن مالك راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض .

الشعار فى الحرب :

يتخذ الجنود شعاراً يتعارفون به فى ظلمة الليل أو عندما يشتبك الفريقان ، وكان هذا الضرب من الاحتراس متبعا فى غزواته صلى الله عليه وسلم ، وفى فتوحات الخلفاء الراشدين من بعده ، عن البراء بن عازب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنكم تلقون عدوكم غدا ،

فليكن شعاركم: حم، لا ينصرون(١) »، وكان شعار المسلمين فى غزوة بنى المصطلق: يا منصور أمت(٢)، وغزا أبو بكر فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شعار الجيش أمت أمت (٣) « أمر من الاماتة ».

تعهد الجنـد بالموعظة :

قد يأخذ الجنود حظهم من الفنون الحربية كاملا، ولا يستغنون بعد عن أن تغذى نفوسهم بالموعظة الحسنة، فمن المثير لحماسة الجند قبل دخولهم فى ملاحم الحروب، إلقاء خطب تذكرهم فضل الإقدام والثبات، وما يأتى به الثبات فى مواقف الدفاع من خير وتنذرهم، ما يجره الجبن والحرص على الحياة من خزى وشقاء.

وكان قائدو الجيوش فى الاســـلام يأخذون بهذه السنة الحسنة، فيلقون على الجيوش قبل انتشاب الحرب خطبا دافعة الى خوض غمار الحرب بحماســة متقدة، وفى وصية أبى بكر الصـديق رضى الله عنه ليزيد بن أبى سفيان التنبيه على إسداء الموعظة للجند، فقـــال :

« وإذا وعظتهم، فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً »

وسنريك أن الجيوش التى تخفق راياتهـا بالنصر، وتكون هى وقائدها على ثقة منه، إنما هى الجيوش التى استنارت بهدى الله، فلا بد إذن

---

(١) سنن النسائى (٢) الاصابة (٣) ابو داود

للجيوش الاسلامية من وعاظ حكماء بلغاء يحببون إليهم التمسك بآداب الشريعـــة السمحة ، ويذكرونهم بما جرت به سنة الله من رعايته للنفوس التي تؤثر رضاه على أهوائها ، ونصره لها على النفوس التي اتخذت أهواءها آلهة .

النشيد الحماسي :

نريد من النشيد الحماسي الشعر الذي يشتمل على تذكير الجنود بمجد قومهم الماضي أو الحاضر ، وبما تقتضيه العزة من نحو إباية الضيم ، والاستهانة بالخطوب ، وشأن هذا الشعر تقوية القلوب ، وإيقاد الغيرة ، فيزداد الجند إقداماً وثباتاً في مواقع القتال ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون يوم حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمـــداً   على الجهاد ما بقينا أبداً

والدين ينهى الرجل عن الفخر بشيء من خصاله الحميدة ، وأباح ذلك في الحرب ، كان علي بن أبي طالب رضي الله عنـــه في فتح خيبر يقول :

أنا الذي سمتني أمي حيـدره   كليث غابات كريه المنظره

وكان عامر بن الأكوع في هذه الغزوة يقول :

قد علمت خيبر أني عامر   شاكي السلاح بطل مغامر

وقال يرتجز :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والشعر الحماسي ولاسيما المقرون بتلحين، لايدع نفساً فيها بارقة من الشجاعة إلا دفع بها فى المعترك دون مبالاة بالموت .

وربما تذكر الرجل وهو فى صفوف القتال نحو قول عمرو ابن الاطنابة :

وقولى لكما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فيذهب عنه خاطر الفرار أو الاستسلام إلى العدو ، ويقفه للدفاع وقوف شحيح ضاع فى التراب خاتمه .

الزحف فى صفوف منظمة :

كان العرب والبربر يحاربون على طريقة الكر والفر ، وكان غيرهم من العجم والافرنج يزحفون إلى الحرب صفوفاً ، وقد جاء الاسلام باختيار طريقة الزحف ، قال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) .

ووجه هذا أن التقدم للقتال فى صفوف منظمة ، أرهب للعدو ،

وأدعى إلى الثبات والدوام فى المعترك ، بخلاف قتال الكر والفر ، فانه لا يعطى الجيش مهابة ، ويسهل فيه على ضعفاء النفوس المسارعة إلى الهزيمة .

ولو بدا لقائد الجيش فى بعض المواطن أن يتخذ طائفة من الجند يحاربون على طريقة الكر والفر ، ويكون من ورائهم الصفوف المنظمة يلجأون إليها عند الحاجة ، فقد فعل هذا ملوك المغرب إذ كانوا يقدمون جنوداً تحارب على طريقة الكر والفر ، ويضربون وراءها صفوفاً من المدربين على الثبات فى الزحف .

الاقدام فى الدفاع :

لكثرة الجند أثر فى الظفر ، وقد ينتصر الجيش وهو قليل العدد متى كان أشد بسالة، وأثبت قدماً عند اللقاء .

وما السيف إلا بَزّ غاد لزينة إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

ومن هنا نجد القرآن الكريم يُعنى بتربية الشجاعة فى النفوس . ومن وجوه تربيته للشجاعة تذكيره الأمة بأن ما ينالهم فى سبيل القتال قد ينال عدوّهم مثله ، قال تعالى : (إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما) ، وقال

تعالى : (إن يَمسَسْكم قَرْح فقد مسَّ القومَ قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

ومن هذا القبيل تذكيره الأمة بأن العدو إذا استولى على أوطانهم كانت له العزة ، وكانت عليهم الذلة ، قال تعالى : (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون) .

الثبات فى مواقع الدفاع :

قد يكون الرجل مقداماً لا يهاب الموت ، ولكنه يبتلى بقلة الصبر على المكاره ، فيسأمُ ما يلاقيه فى حومات الحروب من مشاق ، فيثنى عنانه عن الدفاع ، وينقلبُ على عقبه مبتغياً — فيما يزعم — راحة الحياة ، أو جانحاً إلى صلح يضرب عليه ذلة وصغاراً ، فمن متممات الشجاعة الثبات فى الدفاع إلى إدراك الغاية ، قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تمنّوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا فان الجنة تحت ظلال السيوف »

فكم من ظفر يحرزه أحد الفريقين المتحاربين ، وإنما أحرزوه بصبرهم فى موقف الطعان لحظة أو لحظات ، قال الشاعر الحكيم :

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا　　مُطلا كإطلال السحاب إذا اكفهر

فقلت له لا تبك عينُك إنما يكون غداً حسنُ الثناء لمن صبر

الاخلاص فى الحرب :

نجاح كل عمل على قدر ما يقارنه من طيب السريرة وحسن القصد ، وأحق ما يقصد إليه الناهضون إلى الحرب حمايةُ أوطانهم ، ليسلم لهم دينهم وأعراضهم وأموالهم ، وتكون كلمة الحق هى العليا ، وهذا القصد أكبر باعث على الثبات فى مواقف الدفاع ، فالذى يحارب ليُحرزَ منصباً أو مالا ، أو ليتحدث الناس عن شجاعته ، قد يقف فى إقدامه عند حد ، وما هو من الانهزام والفرار من مواقع الدفاع ببعيد ، أما الذى يقاتل دفاعاً عن شىء يرى الحياة بدونه شراً من الموت ، وهو العزة والحرية اللتان يرى بهما الحق فى إشراق وصعود ، فانه يثبت فى مواقع القتال ولا يلوى عنقه عنه إلا أن يفوز أو يموت. جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له سائلا : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وما أبلغ قول أبى فراس :

يَغشَون حوماتِ المنون وإنها فى الله عند نفوسهم لصغار

أثر الاستقامة فى الانتصار :

جرت سنة الله بأن يكون تأييده فى جانب القوم الذين يملأون قلوبهم بالثقة به ، ويحافظون على واجبات شريعته ما استطاعوا ، كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص «آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فأن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدّتنا كعُدّتهم ، فان استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا ، وإلا ننصَرْ عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا » ، ومنه « ولا تقولوا : إن عدونا شرٌ منا ، فلن يُسلطَ علينا وإن أسأنا ، فربّ قوم سلط عليهم من هو شرٌ منهم(١) » .

فصلاح حال الجيش ولا سيما من بيدهم قيادته ، يستدعي تأييد الله تعالى لهم تأييداً مؤزراً ، وقد يأتيهم النصر بعد استعدادهم ، من حيث لا يحتسبون ، فاذا تفشت فيهم المعاصى ، لم يأمنوا أن يكون

---

(١) أورد محمد بن عبد الحكم فى سيرة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عهداً عهد به عمر بن عبد العزيز إلى منصور بن غالب يشبه هذا الخطاب .

من عقوبة معاصيهم ابتلاؤهم بالوهن والفشل أمام سطوة عدوهم ، قال القاضي أبو بكر بن العربي : لقد حضرت صفاً في سبيل الله في بعض الحروب مع قوم من أهل المعاصي والذنوب ، فلما وازينا العدو أقبلت سحاب وريح ورذاذ كأنه رءوس الإبر ، يضرب في ظهر العدو ، ويأخذ وجوهنا ، فما استطاع أحد منا أن يقف مواجهة العدو ، ولا قدرنا على غرس أن نستقبله بها ، وعادت الحال إلى أن كانت الهزيمة علينا » .

الدهاء في الحرب :

للشجاعة وكثرة الجند وجودة السلاح أثر في الانتصار ، ولكن للدهاء — أعني جودة الرأي — الفضل الأكبر في الفوز والغلبة . وجودة الرأي هي التي أرادها النبي صلى الله عليه وسلم من قوله : « الحرب خُدْعة » . فالمراد من الخدعة اتخاذ طرق خفية للوصول إلى الظفر : كالكمين ، والعمل لإيجاد شقاق في صفوف الأعداء وكما ، فعل نعيم بن مسعود الأشجعي في واقعة الأحزاب ، إذ سعى بين المشركين وبني قريظة بما فرق بينهم ، حتى صرف الله كيدهم . وقال المهلب لبنيه : « عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها أبلغ من النجدة » .

يقوم أمير الحرب على الآراء الصائبة . والآراء الصائبة قد تبدو لقائد الجيش من النظر في طبيعة مواقع القتال ، ومن تبصره بأحوال العدو

التي يطلع عليها يوما فيوما ، أو ساعة فساعة . لهذا كان من المعروف في سياسة الحروب أن قائد الجيش يفوض اليه أمر تصريف الحرب على ما يبدو له من رأى بعد استشارة ذوى الرأى من رجاله المخلصين . كتب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب يستشيره فى دخول الدّروب خلف العدو ، فكتب اليه عمر : «أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب » . وكتب الحجاج إلى المهلّب يستعجله فى حرب الأزارقة ، فكتب اليه المهلب : « إن من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره » !.

اطلاع ولى الأمر على سير الحرب يوماً فيوماً :

يفوض ولى الأمر الى قائد الجيش تدبير شئون الدفاع ، واتخاذ وسائل قهر العدو ، على وفق ما تقتضيه الفنون الحربية . وشأن ولى الأمر أن يكون على خبرة من أحوال الجند وسير الحرب ، كما يكون على خبرة من أحوال العدو : يواصله بها قائد الجيش يوما فيوما أو ساعة فساعة ، حتى يصير كأنه يراها رأى العين . ومن كتاب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص « اكتب الىّ فى كل يوم » : وقال له فى كتاب آخر : « فصف لى منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن . (عاصمة بلاد الفرس) صفة كأنى أنظر اليها ، واجعلنى من أمركم على جلية » .

وإطلاع ولى الأمر على حال الجيش وموقف العدو أمامهم فى كل ساعة ، يدعوه الى السهر والتفكير فى وسائل سلامة الجيش ! ، وإمداده بما يحتاج اليه من قوة .

ولا يمنع ولىّ الأمر تفويضه لقائد الجيش فى أمر الحرب أن يتتبع سيرته وينظر اليها بعين الناقد البصير ، حتى إذا رأى فيها مأخذا نبهه له ، أو بدا له رأى أصوب من رأى القائد أبلغه إياه مصحوبا بالحجة ، انصرف أبو عبيدة فى فتح الشام عن قلعة حلب الى النواحى التى قربت من انطاكية ، فكتب اليه عمر بن الخطاب : « وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحى التى قربت من انطاكية ، فهذا بئس الرأى ! أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنها ، وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه ؟! فما هذا الرأى ؟! فيضعف رأيك ، ويعلو ذكره بما صنع ، ويطمع من لم يطمع ، فترجع اليك الجيوش ، وتكاتب ملوكها ، فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

الشورى فى الحرب :

استطلاع الآراء نافع فى كل أمر ، وهو فى الحرب أحق بأن لا يستهان به ، فانّ رأى الجماعة أبعد عن الخطأ من رأى الفرد ، لذا عُنى القرآن المجيد بالشورى ، فقال تعالى لرسوله الكريم وهو المؤيد بالوحى

(وشاورهم فى الأمر) ، والمراد من الأمر فى الآية أمر الحرب ونحوها من أمور الدنيا التى يدركها النـــاس من طريق التجارب والممارسة ؛ أما الأحكام الشرعية ، فانما تجىء من طريق الوحى . نزل النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فى منزل ، فقال الحبـاب بن منذر : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنـــا أن نتقدمه ، أم هو الرأى والحرب والمـكيدة ؟ قال : « لا ، بل هو الرأى والحرب والمـكيدة » . فقال المنذر : ليس هذا بمنزل ، انهض حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، فقال : أشرت بالرأى ، وأخذ بما قاله الحباب .

كيف يكون قائد الجيش ؟

عرفنا قبل أن الدهاء مما يراعى فى اختيار قائد الجيش ، ويجب أن يكون قائد الجيش مع هذا شجاعاً قوى الجأش ، فان لشجاعته أثراً كبيراً فى شجاعة الجيش أو جبنه ، قال أبو بكر الصديق فى وصيته ليزيدَ بنِ أبى سفيان : « ولا تجبُن فيجبُنَ الناس » ، وقال المتنبى يمدح أبا الهيجاء :

الجيش جيشك غير أنك جيشه   فى قلبه ويمينه وشمـــاله

يريد أن الجيش يتشجع بشجاعتك ، ويقدم باقدامك ، ويهاب من أجلك . وقال :

بالجيش تمتنع السادات كلهم ... والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع

وإذا كانت خصلة الثبات واحتمال المكاره مما يجب أن يغرس فى نفوس الجند ، فنفس القائد أحق بأن تكون مطبوعة على هذه الخصلة الجيدة ، قال الشاعر العربى :

وقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الجيش مضطلعاً

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ... ولا اذا عضَّ مكروه به خشعا

ولا يكفى لقيادة الجيوش عندما تلتهب نار الحرب إلا الرجل الذى كان قد خاض غمار الحرب من قبل ، فذاق حرها ، وثبتت قدمه لملاقاة خطوبها ، قال أبو تمام :

من لم يُسَسْ ويطير فى خيشومه ... رهج الخميس فلن يقود خميسا

وانما يختار لقيادة الجيش من عرف بالغيرة على الحق الذى قامت الأمة للدفاع عنه ، فان هذه الغيرة تزيد شجاعته قوّة ، وتفتح أمامه أبوابا من التدبير الناجح لا يبصرها قائد كان حظه من الغيرة ضئيلا . فتح مغيث بن الحارث قرطبة ، وأسر ملكها ، وكانت للملك بنت ذات جمال ، فأخذت تتعرض لمغيث بجمالها ، فوكل بها من يسلك معها طريق الارهاب حتى تقر بما تقصده من تعرضها لمغيث ، فأقرت بأنها هيأت خرقة مسمومة لتتوسل بها إلى القضاء عليه ، فأخبر مغيث

بذلك ، فقال : لو كان نفس هذه الجارية فى صدر أبيها ، ما أخذت قرطبة فى ليلة واحدة (١).

استكشاف حال العدو :

إن معرفة قائد الجيش بحال عدوه المحارب وما ينويه من أعمال حربية ، تدعوه الى أن يستعد له على قدر مايستطيع من قوة أو مكيدة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم فى واقعة الأحزاب : « من يأتينى بخبر القوم » ؟ قال الزبير : أنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن لكل نبي حوارى وحواريى الزبير » . وأسلم العباس رضى الله عنه قبل فتح مكة ، وكتم إسلامه ، وكان يكتب بأخبار المشركين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال له صلوات الله عليه « إن مقامك فى مكة خير » .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاس : « وإذا وطئت أدنى أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم » ، ومما كتب له « وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها » .

التكتم فى الحرب :

من حزم قائد الجيش أن يكون تصريفه لشئون الحرب محوطاً بستار ، وتكون آراؤه مصونة بكتمان ، ورب نكبة تأتى الجيش فى

(١) نفح الطيب

اطلاع عدوّه على ما يبيّته قائد الجيش من أمر ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش على رأس سرية وناوله كتابا مختوما، وقال له : لا تفتحه إلا فى مكان كذا ، ولما وصل الى ذلك المكان فتحه ، فاذا فيه «امض حتى تنزل نخلة فتأتينا من أخبار قريش » ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد المسير إلى قوم ورّى بغيرهم . وقال أبو بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان : « وإذا قدمت عليك وفود العجم ، فأنزلهم معظم عسكرك ، وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين» ، وفى رواية «وكن أنت المتولى لكلامهم» .

الاحتراس فى الحرب :

تقوم الحرب على المكيدة ، فمن حزم قائد الجيش أن يكون على حذر من الوقوع فى مكيدة ينصبها له العدو . خرج بغاة بخراسان على قتيبة بن مسلم، فقيل له : وجّه إليهم وكيع بن أبي سود فانه يكفيهم، فقال: إن وكيعا رجل به كبر ، يحتقر أعداءه ؛ ومن كان هكذا قلّت مبالاته بعدوه ، فلم يحترس منه ، فيجد عدوه فيه غرة . وقال بعض الحكماء : « الضعيف المحترس من العدو القوى ، أقرب الى السلامة من القوى المغتر بالضعيف » .

لا تحقرن صغيرا فى مخاصمة ان الذبابة أدمت مقلة الأسد

ومن أهم ما يتأكد الاحتراس منه : إذاعة الأخبار التى تبعث فى النفوس ضعفاً ، وفى العزائم وهناً ، ولسدّ مثل هذا الباب من الفساد نزل قوله تعالى : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، فالآية واردة فى قوم كانوا يسمعون أراجيف المنافقين ، فيذيعونها ويكون فى إذاعتها ضرر على المسلمين ، وقد أرشدتهم إلى أن يرجعوا تلك الأنباء إلى الرسول والى أولى الأمر منهم حتى يعرفوا مايذاع وما لاينبغى أن يذاع .

حكم الجاسوس فى الاسلام :

فى التجسس على شؤون الحرب ، والافضاء بها الى العدو ، شر كبير ، فربما كان سبب نكبة القوم وابتلائهم بالهزيمة ، جاسوس يدل القوم على عورة من عوراتهم ، أو يطلعه على خطة مبيتة من خططهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل جاسوساً من المشركين ، وأفتى طائفة من الأئمة كمالك بن أنس رحمه الله ، باباحة دم المسلم اذا نقل شيئاً من أسرار شئون الحرب الى العدو .

الرفق بالجند ومعاملتهم بالعدل :

لو تتبعنا سير القواد الذين أبلى الجنود تحت رايتهم بلاء حسناً ،

لوجدناهم القواد الذين يعاملون الجنود بالرفق والاحسان فى دائرة الحزم. وفى وصية أبى بكر الصديق ليزيد بن أبى سفيان : « واذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير ، وعدهم أياه » . وقال لخالد بن الوليد حين أرسله إلى المرتدين : « ياخالد عليك بتقوى الله والرفق بمن معك » . وقال ابن الخطيب فى مقالته السياسية ، حاثاً على الاحسان الى الجنود: «ووف ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة» ، وفيها « واعلم أنها لاتبذل نفوسها الا لمن يملك قلوبها بالاحسان وفضل اللسان ». وجاء فيما عهد به عمر بن عبد العزيز الى منصور بن غالب حين بعثه على قتال بعض المحاربين «وأمرَه أن يرفق بمن معه فى سفرهم ولايجشّمهم مسيرا يتعبهم ، ويقصّر بهم عن منزل يرفّه بهم حتى يلاقوا عدوهم والسفرُ لم ينقص قوتهم ».

تلقيهم أوامر القائد بحسن الطاعة :

ذكرنا فى وصف القائد أن يكون ذا رأى وشجاعة واخلاص وحزم ورفق بالجند ، ونقول هنا : إن الجيش الذى يحمى حمى الأمة ، ويبنى لها مجداً شامخ الذرى ، هو الجيش الذى يجمع الى الشجاعة والمحافظة على آداب الشريعة استعداده لتلقى أوامر القائد الأمين بحسن الطاعة ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا الأدب السامى فى خطبة حجة الوداع ، فقال : « يا أيها الناس اتقوا الله ، وإن أُمّر

عليكم عبد حبشي مجدّع ، فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام لكم كتاب الله »

ومن أعظم ما يساق شاهدا على حسن الطاعة قصة خالد بن الوليد ، إذ عزله عمر بن الخطاب عن الامارة العامة للجيش الفاتح للشام ووسد الأمر إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ورأى خالد أنه إنما يجاهد في الله فسلم الامارة إلى أبي عبيدة راضيا ، واستمر على القتال تحت راية أبي عبيدة بإخلاص.

تحامي الاختلاف المؤدي إلى الشقاق :

الشقاق يبعد ما بين النفوس ، ويذهب بروح التناصر ، فيفعل بالجند مالا يفعله به عدو شاكي السلاح ، وقد حذر القرآن المجيد منه ، فقال تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) .

والآية تحذر من أن يقع تنازع بين أمراء الجيش ، أو بين أفراده ، أو بين الجيش وأمرائه ، فان ذلك كله موقع في فشل ، وليس بعد الفشل إلا التقهقر ثم ملاقاة ما يعقب هذا التقهقر من صغار واستعباد .

ويتحامى الاختلاف المقوت بالأغضاء عن الهفوات ، ومقابلة كثير من المكروه ، بسعة الصدر ، وطرح المسائل التي تكون منشأ الخلاف على بساط المحاورة في هدوء وسكينة ، والدخول إلى بحثها من

باب الانصاف والقصد إلى معرفة وجه الصواب ، وأبعدُ المجاهدين عن التنازع من جعلوا نصب أعينهم ومناط هممهم رفع لواء الحجة وسلامة الأوطان ، فهؤلاء هم الذين يسابقون إلى كل ما يحقق هذا الغرض المجيد ، ويتحامون كل ما يمكن أن يكون عثرة فى سبيله .

التخلف عن الدفاع

إنما ينهض الرجل للحرب دفاعاً عن قومه ووطنه ليسلم له دينه وعرضه ، وليتمتع بحياة الكرامة ، فتخلفه عنها وهو يستطيع أن يشهدها دليل ضعف الايمان وانحطاط الهمة ، ومدعاة إلى تخاذل الأمة وانكسار شوكتها ، لهذا كانت جنايته فى نظر الشارع كبيرة ، قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) ، وقال تعالى : (وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) .

والخروج إلى جهاد العدو تفرضه الشريعة الغراء على الرجل بعينه متى دعاه إلى الخروج ولى الأمر المسلم ، ومتى هجم العدو فجأة ، ففى هذا الحال يجب على كل مستطيع أن ينضم إلى المدافعين ولو لم تبلغه دعوة ولى الأمر .

الفرار من صفوف القتال

الفرار من صفوف القتال كبير المفسدة ، وخيم العاقبة ، ذلك أن الفار قد يكون كاللبنة تسقط من أسفل الجدار ، فيتداعى لسقوطها الجدار كله ، لهذا عد الشارع الحكيم الفرار من الزحف من أكبر الجنايات ، نهى الله المقاتلين من المؤمنين أن يولوا العدو ظهورهم ، وقال : (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) . وفى الفرار من وجه العدو عار يجعل الحياة بغيضة . وقال يزيد بن المهلب : والله إنى لأبغض الحياة بعد الهزيمة !

الوفاء بتأمين المحارب

إذا أعطى أحد الجند الأمان لأحد المحاربين ، وجب احترام هذا التأمين ، ولا يجوز لأحد أن يتعرض لذلك المحارب بأذى : وإلى هذا يشير قوله صلوات الله عليه : «ويسعى بذمتهم أدناهم» . وقد أمضى النبي صلى الله عليه وسلم تأمين أم هانىء بنت أبى طالب لرجل من المشركين ، وقال لها : « قد أجرنا من أمنت يا أم هانىء » .

وحدث فى عهد عمر بن الخطاب أن عبداً أمن أهل بلد بالعراق ،

فكتب قائد الجيش وهو أبو عبيدة إلى عمر يأخذ رأيه فى هذا التأمين، فكتب إليه عمر « إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » .

ومن المعقول أن يكون لقائد الجيش رأى فى تأمين غيره لأهل بلد تأميناً يقتضى الانصراف عنهم ، فاذا رأى أن مثل هذا التأمين قد يأتى بضرر ، فله أن يبطله ، ويجرى على ما يتراءى له من المصلحة ، وذهب بعض الفقهاء وهو عبد الملك بن الماجشون إلى أن تأمين أحد الجنود لبعض المحاربين ، ينظر فيه القائد الأعلى ، فان لم ير فى إمضائه ضرراً ، أمضاه ، وإلا رده .

مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى :

رسول العدو قد يأتى فى شأن الصلح أو غيره مما فيه تخفيف شر الحرب، فمن حسن الرأى أن لا يتعرض للرسل بأذى ،وأن يكونوا فى أمن حتى يعودوا إلى قومهم ، فان التعرض لهم بأذى يقطع صلة الرسالة بين الفريقين ، ويسد طريق المفاوضات التى يتوسل بها إلى عدم الدخول فى الحرب أو إنهائها إذا كانت ناشبة ، ومكارم الأخلاق تأبى يتعرض للرسول بأذى ولو أرسله قومه لابلاغ ما عزموا عليه من محاربتنا، أو صدر منه كلام فى تعظيم أمر قومه بقصد الفخر أو

الارهاب ،وقد جرى نظام الاسلام فى الحرب على هذا الأدب المقبول:
قدم أبو رافع بكتاب من قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فلما رأى رسول الله ألقِيَ فى قلبه الاسلام ، فقال : يارسول الله : إنى
والله لا أرجع إليهم أبداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما
إنى لا أخيس بالعهد ، ولا أحبس البرُد ، ولكن ارجع فان كان فى
قلبك الذى فى قلبك الآن ، فارجع » قال : فرجعت ، ثم أقبلت إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلمت .

تجنب قتل من لا يقاتل

يحرم الاسلام قتل نساء المحاربين وصبيانهم والطاعنين فى السن
منهم ورهبانهم ان لم يحاربوا ، روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم نهى عن قتل النساء والصبيان ، وروى ابن عباس أنه
عليه الصلاة والسلام كان إذا بعث جيوشاً ، قال : « لا تقتلوا أصحاب
الصوامع » يعنى الرهبان ، وقال أبو بكر الصديق فى وصيته لجيش
أسامة : « وسوف تمرون بأقوام قدفرّغوا أنفسهم فى الصوامع ،
فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » وقال : « ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً
كبيراً ولا امرأة » .

ومن وصايا عمر بن الخطاب لامراء الجيش « ولاتقتلو هرما ولا

امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم ، اذا التقى الزحفان، وعندشن الغارات».

ويلحق بهؤلاء فى تجنب قتلهم المريض والمقعد والأعمى والمجنون، وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم النهى عن قتل العسيف ، وهو الأجير ، وبهذا يظهر أن الاسلام إنما يقصد من الحرب دفاع من يقصدون لأن يقاتلوا ، ولا يصح القصد لقتل من ليس شأنه القتال .

معاملة الأسرى :

إذا وقعت طائفة من العدو المحارب فى أسرنا ، لم يجز لأحد من الجنود أو غيرهم أن يمسهم بأذى ، وإنما يرجع أمرهم الى رأى ولى الأمر الواسع الخبرة بوجوه المصالح ، فيعاملهم بما تقتضيه خطة الحزم وما تمليه سماحة الأخلاق ، وذهب من علماء السلف الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح الى أن ولى الأمر يخير فى الأسرى بين أن يطلقهم على وجه المن ، أو يطلقهم بفداء ، وتمسكوا فى هذا بقوله تعالى { فشدوا الوثاق ، فاما منّا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها }.

وقع ثمامة بن أثال أسيرا فى أيدى المسلمين ، فجاءوا به الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: «أحسنوا أساره» وقال: «اجمعوا ماعندكم من طعام فابعثوا به اليه» ، وكانوا يقدمون اليه لبن لقحة(١) رسول الله صلى

(١) اللقحة الناقة الحلوب :

الله عليه وسلم غدوا ورواحا ؛ ودعاه النبي صلى الله عليه وسلم الى الاسلام، فأبى وقال له : ان ترد الفـــداء فسل ما شئت من المال ، فأطلق النبي عليه الصلاة والسلام سبيله من غير فداء ، ثم دخل بعد هذا المن في الاسلام .

ووقعت ابنـة حاتم الطائي في أيدي المسـلمين ، وأنزلت بمكان يمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فتعرضت له ، وقالت : هلك الوالد وغاب الرافد ، (تعني أخاها عديّا) فامنن عليّ منّ الله عليـك ! فقال : قد فعلت ، فلا تعجلي بخروج حتى تجـدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغــك إلى بلادك ، وأقامت حتى قدم رهط من قومها ، فـكساها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملها ، وأعطاها نفقة ، فخرجت معهم

وأطلق صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة جماعة من قريش وقعوا في الأسر قبل دخوله مكة ، فكانوا يدعون الطلقاء

الدفاع في البحر

لم يدخل المسلمون في قتال بحرىّ الى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أول من ركب البحر فاتحا معاوية بن أبي سفيان ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في حياته بما يقوم به المسـلمون من فتوح على

طريق البحر ؛ نام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أم حرام بنت ملحان وهي تحت عبادة بن الصامت ؛ ثم استيقظ وهو يضحك ؛ قالت فقلت : مايضحكك يارسول الله ؟ قال : « ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هـذا البحر ، ملوك على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة » ، فقلت : يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لهـا ، ثم وضع رأسـه فنام ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يا رسـول الله ؟ قال : « ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله » نحو ما قال في الأول ، قالت : فقلت : يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : « أنت في الأولين » .

وقد أجاب الله دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لها ، وعلم أن دعاءه قد استجيب ، فقال لها : أنت في الأولين ، وركبت أم حرام البحر مع زوجها عبادة بن الصامت في زمن معاوية لفتح « قبرص » ولما خرجوا من البحر صرعت عن دابتها وتوفيت ودفنت هناك . وقيل صرعت بعد عودتها إلى الشام .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم « ملوك على الأسرة » مبالغة في فضل المحاربين في البحر ، وترغيب في صرف الهمة إلى المهارة في ركوبه ، وإنشاء أساطيل تكف أيدي الأعداء الممتدة من وراء البحار .

وأنشأ أمراء الاسلام من بعدُ أساطيل ، واتخذوا لها مصانع ، كما اتخذ حسان بن النعمان عامل أفريقيه بايعاز من عبد الملك بن مروان دار صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية . وبلغ أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر نحو مائتى مركب ، وكذلك كان أسطول تونس والمغرب الأقصى فى قوة ، ولو استمر المسلمون على العناية بالقوة البحرية ، والتقدم فى صنع وسائلها، لكان لهم شأن غير هذا الشأن .

عقد الصلح :

قد يقتضى الحال عقد صلح بيننا وبين العدو، وقد استحب الشارع الحكيم عدم رفض الصلح متى رغب فيه المحاربون ، فقال تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم عقد بينه وبين كفار قريش صلحاً أتى بخير كثير ، وهو صلح الحديبية . وشروط الصلح تختلف باختلاف قوة الأمة وضعفها، وملاكها أن يكون فى عقد الصلح مصلحة عامة ، وأن لا يكون من بين الشروط إباحة ماتحرمه الشريعة. والذى نريد التنبيه له فى هذا الفصل، أن الصلح الذى يلقى بالأمة فى خزى ، ويجعل بطن الأرض خيراً لها من ظهرها ، هو الصلح الذى يبعثها على السعى إليه أو على قبوله حب الحياة وكراهة الموت ، فتحتمل مهانته وهى تستطيع دفعه بالرجال

والسلاح ، قال تعالى : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم) .

وهذا شاعر عربي يأبى لقبيلته أن تتقبل صلحاً إلا أن يكون لها السلطان في وطنها ، وتبقى منابرها التي هي مصادر الأمر والنهي في قبضتها ، فقال :

ولا صلح ما دامت منابر أرضنا   يقوم عليها من ثقيف خطيب

تخليص الأسرى من أيدي العدو :

يقع الفرد أو الطائفة في أسر العدو ، ولا يعد هذا وحده دليل الجبن أو التقصير في الدفاع ، حتى يجر إلى صاحبه عارا ، أو يسيغ لمن بيدهم الأمر أن يصرفوا عنه أنظارهم ، ويتركوه في أيدي العدو ، يلاق المهانة أو سوء العذاب . كان هاشم بن عبد العزيز أحد وزراء محمد بن عبد الرحمن الأموي بالأندلس : قائد جيش ، ووقع أسيرا في يد العدو ، فنسبه الأمير محمد الى الطيش والاستبداد بالرأي ، فقام الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم يدافع عنه في مجلس الأمير ، ومما قاله في الاعتذار عنه :

« إن هاشماً قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الاقدام ، ولم يكن ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل

عنه من كان معه ، فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه ، حتى ملك مقبلا غير مدبر ، ومبلياً غير فشل ، فجوزى خيرا عن نفسه وعن سلطانه ، فانه لا طريق للملام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب القشوم » . فأعجب الأمير بكلام الوليد ، وأقصر فيما بعد عن تفنيد هاشم ، وسعى فى تخليصه .

فمن واجبات الدولة أو الأمة تخليص من يقع فى أسر بالوسائل المستطاعة من مال أو غيره ، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الواجب بقوله : « فكّوا العانى — الأسير — وأطعموا الجائع وعودوا المريضَ » .

تقدير البطولة

البطل يقف المواقف الخطيرة ، ويجود بحياته فى دفاع العدو ، لتعلو كلمة الحق ، وتحيا الأمة حياة الكرامة ، فهو جدير بأن يلاقى من الأمة التبجيل والتكريم . وشعور البطل بأنه يعمل لخير أمة تقدر رجالها حق قدرهم ، مما يزيد إقباله وثباته على الدفاع قوة ، وإذا شعر غيره بهذا التقدير ، فقد يقوى حرصه على أن يسلك سبيله ، ويبذل كل ما يعز عليه فى سبيل سلامة الوطن ، وسيادة الأمة ، سئل بعض

الحكماء عن أشد الأشياء تدريبا للجنود، فذكر أشياء، وقال: «الاكرام للجيش بعد الظفر، والتشريف للشجاع على رءوس الناس».

ولتكريم الابطال مظاهر: منها الاحتفال بتوديعهم عند الخروج للحرب، كما خرج الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه يشيع أسامة ابن زيد والجيش المسافر معه إلى الشام، وكان أبو بكر ماشيا على قدميه، وأسامة راكبا راحلته. وخرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشيع سعد بن أبى وقاص والجيش المسافر الى فتح فارس حتى بلغ موضعا يقال له الأعوص، وهناك خطب فيهم خطبة أوصاهم فيها بالعدل والرحمة، الى نحو هذا، وعاد الى المدينة، وكان اليوم الذى خرج فيه أسد بن الفرات (١) من القيروان لفتح صقلية يوما مشهودا

ويضاهى هذا استقبالهم والاحتفاء بهم عند إيابهم من حرب أبلوا فيها بلاء حسنا.

ومن مظاهر تقدير الأبطال المخلصين، عناية ولى الأمر بأن يكون عيشهم فى رخاء، وأن يكونوا فى أمن على اصلاح شأن أطفالهم إذا استشهدوا، جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمة بن الأكوع فى

(١) توفى أسد فى حصار سرقوسه شهيدا وهو أمير الجيش وقاضيه سنة ٢١٣.

بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس ؛ فأعطاه خمسة أسهم لعظم غنائه فى تلك الغزوة ، وزاد عمر بن الخطاب فى عطاء فتاة من بيت المال ، وقال : « إن أباها فتح حصناً » .

ومن وجوه تقدير الأبطال صوغ عبارات الشكر والثناء عليهم فى نظم أو نثر ، وفى الأدب العربى قسم عظيم فى الثناء على الأبطال والتنويه بذكر مقاماتهم المجيدة ؛ قال أبو تمام :

كم بين قوم إنما نفقاتهم　　مال وقوم ينفقون نفوسا

وبطولة الرجل تطلق الألسنة بتمجيده ، حتى ألسنة خصومه الذين تجرعوا من شدة بأسه مرارة : خرج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، فوجه لقتاله أخاه مسلمة بن عبد الملك ، وثبت يزيد بن المهلب فى قتاله ، وأبى أن يفر وقد تسلل عنه أعوانه ، حتى قتل ، وأراد أحد جلساء يزيد بن عبد الملك أن ينال من ابن المهلب ، ويحط من شأنه ، فقال له يزيد بن عبد الملك : « إن يزيد طلب جسيما ، وركب عظيما ، ومات كريما » .

عش عزيزا أو مت وأنت كريم　　بين طعن القنا وخفق البنود

ومن تقدير البطولة الاغضاء عن أخطاء تصدر من البطل وهو يحارب العدو بعزم صميم ، وعدم مناقشته الحساب على مآخذ قد

يشفع له فيها اخلاصه ، والاخلاص القائم بجانب البطولة شفيع أى شفيع !

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد لدعوة بنى جذيمة إلى الاسلام ، فسبقت يد خالد إلى قتل رجال منهم باعتقاد أنهم يستحقون القتل ، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكر مافعل خالد ، وقال اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ! وأرسل إلى بنى جذيمة مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ديات من قتلوا ، وأعطاهم قيم ما أصيب من أموالهم ، وزادهم على ما استحقوا من الديات وقيم الأموال ، ولم يعزل خالدا عن قيادة الجيش .

وفى الختام أقول : هذه فصول فى آداب الحرب أسوق حديثها تذكرة لجيوشنا الأسلامية فى مصر وغير مصر ، عسى أن يقرأوها بتدبر ، ويستقيموا على طريقتها ، فتخفق ألويتهم بالنصر ، ويخرجوا بلاد الاسلام من خمول الى نباهة شأن ، ومن هون الى عزة ، قال تعالى : (يا أيها الذين ، امنوا ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم) .

فهرست

صفحة

١ أسباب الحرب
٣ الاستعداد للحرب
٤ التدريب على الحرب – محاكاة العدو فى وسائل الدفاع
٥ كتابة اسماء من يدعون الى الحرب – اعلان الحرب
٦ رفع الرايات فى الحرب – الشعار فى الحرب
٧ تعهد الجند بالموعظة
٨ النشيد الحماسى
٩ الزحف فى صفوف منظمة
١٠ الاقدام فى الدفاع
١١ الثبات فى مواقع الدفاع
١٢ الاخلاص فى الحرب
١٣ أثر الاستقامة فى الانتصار
١٤ الدعاء فى الحرب
١٥ اطلاع ولى الامر على سير الحرب يوما فيوما
١٦ الشورى فى الحرب

صفحة

١٧ كيف يكون قائد الجيش

١٩ استكشاف حال العدو — التكتم فى الحرب

٢٠ الاحتراس فى الحرب

٢١ حكم الجاسوس فى الاسلام — الرفق بالجند ومعاملتهم بالعدل

٢٢ تلقيهم أوامر القائد بحسن الطاعة

٢٤ تحامى الاختلاف المؤدي الى الشقاق

٢٥ التخلف عن الدفاع

٢٥ الفرار من صفوف القتال — الوفاء بتأمين المحارب

٢٦ مجاملة رسل العدو وعدم التعرض لهم بأذى

٢٧ تجنب قتل من لايقاتل

٢٨ معاملة الأسرى

٢٩ الدفاع فى البحر

٣١ عقد الصلح

٣٢ تخليص الأسرى من أيدى العدو

٣٣ تقدير البطولة


Bibliotheca Alexandrina
03827727